الافتتاحيّة

إرميا قدوةٌ ومثالٌ في خدمة الكلمة

رئيس التحرير

مقدّمة

إنّ كلمة الله في إرميا هي مصدر دَفْع للصمود أمام الشدائد، لعدم التراجع أو الاستسلام في أوقات المحن والمصاعب، ولعدم الوقوع في الإحباط والحزن. إنّ الكلمة، وحتّى عندما تكون قاسية، هي دائمًا كلمة محوِّلة، كما النار، ولا تدع متلقّيها أبدًا غيرَ مبالٍ؛ هكذا هي تُضحي علّةَ اهتداء وارتداد، مصدرَ إلهامٍ، وقوّة محيية. وهنا يحسن بنا أن نتذكّر بأنّ حياة المؤمن، كما حياة إرميا، هي خاضعة لكلام الله، وتسير وَفْقَ توجيهاته وتوصياته وأوامره.

١ – هل كلام الله هو كلامٌ ضعيفٌ، لا قدرةَ له ولا سلطان؟

قد يقودنا التسرُّع إلى القول بأنّ رسالة إرميا النبويّة، وعلى المستوى التاريخيّ، لم تكن سوى فشلٍ ذريع؛ فهو شخصيًّا انتهى مكرهًا في المنفى في مصر، بعد أن رفض مواطنوه أن يصغوا إليه، وحتّى بعد أن تأكّدَت صحّة أقواله وتهديداته، وكأنّي بكلام الله، الذي كنار آكلة، هو كلامٌ ضعيفٌ ومجرَّدٌ من أيّ قدرةٍ ومن أيِّ سلطان.

وفي الوقت الذي فيه يبحث عالمُنا على تطمينات لم يَعُدْ قادرًا على أن يجدها، والذي فيه تحاول الكنيسةُ جاهدةً أن تقدِّمَ ذاتها على أنّها سيّدة الكلمة القويّة، والقيَم المطلقة والتي لا جدال حولها، تواصل كلمةُ الله حضورَها، حضورًا يذكّرنا بأنّها أيضًا كلمةٌ ضعيفة، ودونَ ادّعاء بأنّها ذات سلطانٍ على المستوى البشريّ، وأنّ لا قوّةَ لها إلاّ في ذاتها. هي كلمةٌ تعرف أن تتقبّل حتّى الفشل؛ في هذا السياق نصغي إلى قولِ بولس الرسول المعبِّر جدًّا: "إنّ كلمة الصليب في الواقع هي جهالة بالنسبة إلى الهالكين، ولكنّها بالنسبة إلينا نحن المخلّصين هي قدرة الله" (١ كو ١: ١٨).

نقول هذا لنعود إلى إرميا الذي ينتقد أكثر من مرّة الاطمئنان الكاذب لدى مَن يضع ثقته في نظام دينيّ راسخ، إنْ كان الهيكل (رج إر ٧)، وإنْ كانت الشريعة الموسويّة المعتَبَرة كأداة خلاص. لنتذكّر إر ٣١: ٣١–٣٤ والتبشير بعهد جديد مؤسَّس على المغفرة التي يمنحها الله، وليس على حفظ الشريعة الذي يتمّ بالقوى الخاصّة.

٢ – صوت إرميا يدعو الكنيسةَ إلى أن تتحوّل إلى "كلمة"

من أجل أن تتمكّن الكنيسة من أن تبقى نبويّةً، ومن أن تنقل بذاتها رسالةَ السماء إلى العالم، يجب أن تتحوّل هي ذاتُها إلى "كلمة"، إلى رسالة، إلى شاهدة حيّة، "لأنّ العالم هو بحاجة إلى شهود أكثر منه إلى معلّمين"، كما يقول البابا بولس السادس [١].

وكما كان إرميا غيرَ قادر على أن يعطي أجوبةً على كلّ المسائل، وحلولاً لكلّ المعضلات، كذلك الكنيسة قد لا تكون دائمًا قادرةً على أن تجيب على كلّ مسألة، لكنّها كإرميا النبيّ هي قادرة أبدًا على ذلك بقوّة الكلمة التي وَلَدَتْها ككنيسة، الكلمةِ التي تبشّر هي بها، وليس إطلاقًا بذاتها.

لذلك فإنّ صوتَ إرميا يدعو الكنيسة إلى أن تثق بكلام الله، حتّى عندما يبدو الله، كما يقول إرميا، وكأنّه صامت ولا يصغي لعبده أو لأبنائه ولبناته، أو حتّى عندما يتولّد شعورٌ مشابهٌ لشعور إرميا بأنّ العالم غير راغب في الإصغاء إلى كلام الله.

٣ – فلتثِق الكنيسةُ في شدائدها بـ"الكلمة" الإلهيّة كثقة إرميا

لقد وضع إرميا ثقته بالكلمة، بالرغم من كلّ ما واجهه واحتمله، لكنّه عرّض بذلك حياته للخطر إلى حدّ فقدانها، وهذا ما سيحصل ليسوع بالذات الذي وضع ثقتَه بكلام أبيه السماويّ، فكان ثمنُ ذلك الموتَ على الصليب، وهذا ما ستقاسيه الكنيسة الأمينة للكلمة المتجسّد، يسوع المسيح، إذ إنّها ستواصل كفاحَها وجهادَها ضدّ ذاتها، في عمليّة اهتداء متواصل، بهدف إبراز جِدَّة كلام الله، كلام هو، كما عند إرميا، كلامُ اهتداء ورجاء، وليس كلامَ دينونة؛ هو كنارٍ تفني، ولكنّها تغري وتجذب وتُدفئ. هذا ما دفع إرميا إلى إعلان كلمته الشهيرة: "لقد أغويتني، أيّها السيّد، فانغويت" (إر ٢٠: ٧).

٤ – هل تعاني الكنيسة من نقصٍ في الأنبياء فيها؟

إذا كانت الكنيسة في أيّامنا تعاني من نقص في الأنبياء فيها، فَمَرَدُّ ذلك إلى ندرة مَن "تغويهم" كلمةُ الربّ، خاصّةً لأنّها كلمة مواجهة ومعاندة، وتنديد وتهديد، كلمة حقٍّ تؤدّي بمن يقبلها إلى الصواب؛ فعلى مِثال عاموس وأشعيا، النبيَّين السابقَين لإرميا، هذا الأخير هو نبيّ يتمتّع بالجرأة والشجاعة لينذّد، وباسم كلام الله، بظلم المقتدرين، وبرياء سلطات الهيكل الدينيّة؛ ونذكّر هنا بنصوص إرميا التي يوجّهها بقوّة ضدّ الهيكل (رج إر ٧).

كما ينذّد إرميا بفساد الشعب بشكل كبير (رج إر ٥)، الأمر الذي أدّى به إلى شيء من التشاؤم ذات طابع

(١) البابا بولس السادس، **إعلان الإنجيل** *(Evangelii Nuntiandi)*، ١٩٧٥.

أنتروبّولوجي نتبيّنه من قوله الشهير:" هل يُغَيّرُ الحبشيُّ جلدَه، والنّمرُ رَقَطَه؟ وأنتم، فهَل تَقتَدِرونَ أن تصنعوا الخير وأنتم معتادونَ الشّرّ؟" (إر ١٣: ٢٣).

لقد أحرق يوياقيمُ دَرْجَ النبوءات التي كان إرميا قد كتبها (إر ٣٦)، لكنّ هذا التعدّي الصارخ لم يَحُلْ دون تصميم إرميا على إعادة كتابة ما أتلفه المَلِك، لأنّ كلام الله كان بالنسبة إليه قلبَ رسالته؛ فمنذ بداية السِفْر (إر ١: ١) لدينا العبارة: "كلام إرميا"، وفي ١: ٢، "إليه كانت كلمة الربّ"؛ نعم، إنّ للنبيّ علاقةً خاصّةً بكلام الله، لأنّ كلامه هو بالتحديد كلام الله؛ لذلك تُعتَبَر الدعوةُ الوقتَ الذي فيه يضع الله يدَه على كلام إرميا ليجعله كلامَه هو.

خاتمة

تفتقد الكنيسةُ اليوم الأنبياء الذين لا يخافون من أن يندّدوا بالتنكّر لكلام الله، إلى حدّ إدارة الظهر له، وأن يطلقوا تنديدَهم هذا طبعًا باسم الربّ، وليس إطلاقًا باسمهم الشخصيّ. من هنا الدعاء الحارُّ إلى الربّ كي تُنبِتَ الكنيسةُ أنبياءَ أشدّاءَ بقوّة "الكلمة"، على مثال إرميا النبيّ البطل والشهيد.